الفصل الثاني عشر

الفعل المقاوم في الأسر: سهى.. أحلام.. وأخواتهما

عفيف عثمان[*]

أولاً: المقاومة في الأسر

«لا تبحث الذاكرة في إنقاذ الماضي إلا لتخدم الحاضر والمستقبل. لنعمل على النحو الذي تساهم فيه الذاكرة الجمعية بالتحرر وليس باستعباد البشر»[1]، يقول جاك لوغوف، المؤرخ الفرنسي: التذكر إذاً يقع على الضدّ من النسيان وهو في خانة الواجب، خصوصاً تلك التجارب ذات الطابع البشري الكوني والتي محورها الإنسان في كُلّ زمان ومكان مثل الاعتقال والمقاومة.

لم يقتصر الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان (اندحر في ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠٠) على قهر الأرض، بل امتد ليشمل البشر القاطنين في هذا الركن الجغرافي، مستخدماً أيدٍ محلية كي يدّعي براءة مما اشتكى منه كشعب يهودي إبان الحرب العالمية لثانية، كاليد التي تلبس قفازاً وتنسب إليه أفعالاً.

الحرمان من الحرية والاعتقال كانا نصيب من بادر قولاً أو عملاً إلى رفض دنس الاحتلال ـ فالصمت كما فعل أبطال فيركور[2] أمام المحتل الألماني لفرنسا لم يكن

(*) باحث في الجامعة اللبنانية.

(١) ورد في: Tzvetan Todorov, *Les Abus de la mémoire* (Paris: Arléa, 1995), p. 9.

(٢) فيركور، **صمت البحر**، ترجمة رشيدة التركي، الكتاب للجميع (بيروت: السفير؛ دار المدى، ٢٠٠٤).

ليجدي نفعاً ـ في معتقل وسم بالعار (Prison De La Honte)، بحسب أحد الباحثين الفرنسيين، وسمي بـ «معتقل الخيام»، وهو عبارة عن ثكنة عسكرية فرنسية قديمة تقع في بلدة الخيام الجنوبية[٣].

المحروم من حريته إنسان وليس رقماً في زنزانة تحمل رقماً بدورها. كان يملك حياة جرى تعليقها قسراً، وانتزعت من مجرى الزمن لتخضع لزمن آخر أراد المحتل التحكم بوقائعه ومجرياته. بيد أن النفس أمّارة بالرفض والمقاومة وميّالة، إلى ابتداع «حياة موازية» تنسجم مع معيشها وثقافتها وتراثها وذاتها.

الاعتقال ليس حرماناً من الحرية وحسب، إنّه افتئات على الكائن جسداً ونفساً. الجسد بهدف تطويعه في جلسات تحقيق وتعذيب طويلة. وقد لا يحتمل فنون الضبط والعقاب المتقنة، إلا أن «النفس» المتوارية خلفه، عصية على المنال. لها ملكوت تستمد منه المدد، يبلسم جراح الجسد المثخن وتمنحه أملاً لا شفاء منه. أمل في الغدّ وفي الحرية وفي التئام شطري الكائن.

يكتشف المعتقل في فترة الأسر أنّه يعيش في عالم خاص يسمح للذات باكتشاف قدراتها «عالم يوفر لك التحدي اليومي، فيحافظ على إرادتك في حالة تحفز ويمنحك تلك اللذة الفائقة الجمال، والعصية على الوصف، لذة الانتصارات الصغيرة على العدو في هذه الناحية أو تلك»[٤].

في المعتقل تتواجه استراتيجيتان، واحدة خاصة بالسجان وأخرى بالسجين، يبتدع فيها هذا الأخير أشكالاً من المقاومة البسيطة، الرمزية أحياناً، والتي لم تكن لتخطر له في بال، فإذا هو يتجاوز الخوف ويجعل الحيز ملكاً له يتصرف فيه وفقاً لخطته المضادة. وللسجين روايته ورؤيته لفترة اعتقاله، يسرد فيها أوليات مقاومته في صوت مدوي، صوت حقّ يريد فضح الباطل.

وأنا كما تقول إتيل عدنان[٥]

علي أن أمنح صوتاً

---

(٣) عام ١٩٨٥ أقفل معتقل أنصار واستحدث «معتقل الخيام»، في ثكنة بناها الانتداب الفرنسي عام ١٩٣٣، وسلمت إسرائيل إدارته إلى «جيش لبنان الجنوبي». وكان الإسرائيليون اتخذوا هذه الثكنة مركزاً للتحقيق في اجتياح العام ١٩٧٨. وتضمن معتقل الخيام ٦٧ زنزانة جماعية عرض الواحدة منها متران وطولها ٣ أمتار ويسجن فيها ١٠ معتقلين وزنازين انفرادية طول الواحدة ٥٠ سنتيمتراً وكذلك عرضها وارتفاعها متر واحد.

(٤) إسماعيل دبج، **ذكريات مبعثرة**، سلسلة من ذاكرة الأسر (دمشق: دار المسبار، ٢٠٠٢)، ص ٧.

(٥) انظر **الملحق الأسبوعي** (النهار) (١٥ آب/ أغسطس ٢٠٠٤).

لأسرى الجدران

أن أمنحهم مجرد كلمات

أليست الكلمة

أولى ذرات اللغة

أليست الكلمة

قنبلة منزوعي السلاح؟

كُلّ هذا

انتهى خراباً

هناك . .

وهنا نسرد شهادات لمقاومات لبنانيات اجتزن بنجاح امتحان الأسر، وكنّ فخراً لأمتهن وقضيتهن.

ثانياً: الصخر ينبت زهراً

الأسيرة زهرة شعيب[٦]، جعلت من السيدة زينب (رضي الله عنها) قدوتها في محنتها، وهي كانت تردد لنفسها أن «أسرها مهما بلغ في شدته، ومصيبتها مهما تعاظمت، لن تبلغ مبلغ أسر زينب ومصائب زينب»[٧]، وكانت صورة كربلاء تتراءى لها موكباً وسبايا فتخاطبها «وازينباه! . . يا أم السبايا والمظلومين، أيتها الأسيرة الحرة. . سلام عليك!»[٨]. تغرف زهرة صبرها من «ينبوع الصبر الأكبر لسيدة النساء عليها السلام»[٩]، ما جعلها قادرة على احتمال ما لا يُطاق.

وفي أثناء التحقيق معها، حين تُترك وحيدة في غرفة مقفلة ضوءها خفيف، كانت ترى بهدي «نور رحمة الله الذي لا يدانيه نور»[١٠].

وفي رفضها للعدو المحتل، رفضت بداية حتّى تناول الطعام والماء الذي يقدمه،

---

(٦) مواليد العام ١٩٤٧ الشرقية، اعتقلت في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ وتم إطلاق سراحها في آذار/ مارس ١٩٨٤.

(٧) زهرة شعيب، **الصخر ينبت زهراً**، إعداد رجاء بيطار (بيروت، دار الهادي، ٢٠٠٣)، ص ١٢١.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

إذ كان يتراءى لها ممزوجاً بالرجس والسم، واحتملت ذلك، إذ راحت «تتأسى بجوع الحسين»[١١].

ولجأت زهرة إلى الصلاة، وتمسكت بها شاهداً على رفض الظلم، وتفيأت ظلال القرآن تتلو ما حفظت من الآيات والسور «تغذي قوة احتمالها بقوة تعلقها ببارئها»[١٢]، وأسلمت أمرها إلى الله باكية تدعوه: «يا ربّ.. يا مجيب دعوة المضطرين، أجب دعائي واستر علي بسترك الجميل، واحفظني بحفظك يا أكرم الأكرمين، يا من لا يخيب من دعاه، بحرمة محمّد(ﷺ) وأله، اكفني شرّ كُلّ ذي شرّ يا ربّ!»[١٣]، «رباه. يا ربّ النور العظيم. أنر لي دربي ولا تُخلِ من النور قلبي، إنك أنت السميع المجيب»[١٤].

تقول زهرة إن قوة روحها ساعدت جسدها على الاحتمال «تسيره تلك الروح المتشبثة بكل معاني الحقّ والحرية»[١٥]. لقد تقوت زهرة بغضبها من ظلم العدو وبطشه، و«شدّ من أزرها صوت الأنين»[١٦] الصادر من غرف السجن، وكانت في خاطرها تقول: «ليسوا شراً من يزيد وأصحابه، ولست خيراً من زينب (رضي الله عنها)، بل لست أدانيها ولا أجرؤ. إذاً، فلأحاول أن استمد من عزيمتها تلك الخالدة عزيمة»[١٧].

ثالثاً: محو الأمية

المعتقلة ناهدة سميح حميد من بلدة الخيام، اعتقلت في العام ١٩٨٧ لمدّة ستة أشهر، تقول إنها في الأسبوع الثاني لاعتقالها أدخلت إلى إحدى الزنازين الجماعية التي لا تزيد مساحتها عن أربعة أمتار مربعة. وتضم ثماني فتيات ولكن العدد كان يرتفع إلى اثنتي عشرة فتاة. وتحدياً للاحتلال، حاولت في البدء إعطاء دروس في محو الأمية، وقامت مع رفيقاتها بتنظيم الخدمة اليومية داخل الزنزانة ومناقشة مواضيع مختلفة سياسية واجتماعية. وكذلك في المناسبات كن ينشدن الأغاني الدينيّة والوطنية. والضغط والقسر لم يمنعها ورفيقاتها من القيام بتحركات مطلبية لتحسين ظروف الاعتقال[١٨].

---

(١١) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(١٨) نقلاً عن: علي سرور، **الخيام: شهادات حية عن الإرهاب الصهيوني** (بيروت: منشورات تجمع معتقلي أنصار، ١٩٨٨)، ص ٩٥.

رابعاً: مقاومة الاعتقال

ما أن اعتقلت سهى بشارة (عام ١٩٨٨) ولها من العمر واحد وعشرون عاماً، بعد أن حاولت قتل أنطوان لحدّ، قائد ما سمي بـ «جيش لبنان الجنوبي»، حتّى أدركت جوهر معركتها القادمة مع الاحتلال وعملائه، وهي «البقاء» وما يقتضيه الأمر من توطين للنفس وإعداد لها، كي تقوم على الاستمرار في معتقل الخيام التي تصفه بالجحيم بسبب كون «السجناء منكرون، ومحجوبون، بل تراهم محذوفين من عالم الأحياء بكل بساطة»[١٩]، كما تقول سهى، وتضيف إن موقع السجن والمناخ المحيط به قادر على النيل من «أمتن السجناء بنية»، فالمعتقل خانق في الصيف وجليدي في الشتاء. كما إنَّ مبدأ المعتقل في بداية إنشائه (العام ١٩٨٥) قام على حرمان المعتقلين من شيء، و«كانت النساء محرومات من العناية بأنفسهن في الحدود الدنيا. إذ توجب عليهن، مثلاً أن يصنعن لأنفسهن فوطاً صحية من خرق أثوابهن، ويغسلنها باستمرار ويعدن غسلها مرات ومرات»[٢٠]، وكانت الأمراض سهلة الانتشار بسبب «فقر الطعام وانعدام الراحة في الزنازين»[٢١].

والحال، لم يستسلم المعتقلون للظروف السيئة ولإرادة السجانين، بل سرعان ما تمردوا وانتفضوا في تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٨٩، مطلقين صرخة «الله أكبر! الله أكبر»[٢٢] معمدة بدم شهيدين.

اقتضى صراع الإرادات مع المحتل وعملائه، من سهى خطة تضعها في عقلها تكون سنداً لها في ما أسمته هي «صراع البقاء» أثناء فترة اعتقال تصورتها ستكون طويلة، ومن الضروري خلالها اتباع طقوس محددة تساعد على تنظيم الزمن من قبيل: «ترتيب الزنزانة والحمام والحصول على المياه ووجبات الطعام»[٢٣]. وقد أدى التضامن داخل الزنزانة الواحدة بين السجينات دوراً كبيراً في تخفيف الضغط عليهن، ومن ذلك اللجوء إلى «الألعاب الجماعية الصامتة»[٢٤].

وفي مواجهة الحبس الانفرادي في زنزانة صغيرة هي الرقم (٧)، قررت سهى القيام بتمارين رياضية في موضعها كي تظل نشطة[٢٥] ومتماسكة، فكانت تمشي ما

---

(١٩) سهى بشارة، **مقاومة** (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١)، ص ١٥٤.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٥٥.
(٢١) تحسنت أحوال المعتقل بعد دخول الصليب الأحمر الدولي إليه بعيد العام ١٩٩٦.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٦١.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٧٥.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

يعادل الأربعة كيلومترات، وتكتب عن هذه التجربة فتقول: «كان تحريك الجسم يقتضي مني قدراً كبيراً من التركيز، نظراً إلى ضيق المكان، فكلما وقفت في منتصف الزنزانة، وظهري إلى الجدار، وجدتني على بعد خطوتين من الباب. وصار علي أن أدور على محوري، وأنفذ خطوتين أخريين، وأعيد الدوران على محوري وأكرر آلاف هذه الحركة، يعينني في ذلك قدر كبير من حضور الذهن، يقيني من الاصطدام بأحد الجدران من حولي»[٢٦].

في جلسات التحقيق كان لسهى لغتها الخاصة بها تواجه لغة المحتل، ففي محاولة منه لطلب معلومات عن الطيار الإسرائيلي المفقود «رون أراد» قال لها المحقق: «يسعك أن تساعدي كُلّ الناس في السجن!» فأجابته قائلة: «إني في معتقل. أما السجن فهو المكان الذي يودع فيه الناس بعد أن يحاكموا محاكمة صريحة، الأمر الذي لا ينطبق علينا»[٢٧].

العلاقة المتينة بين المعتقلات، حملت في طياتها الدعم والتشجيع، وذلك من خلال تبادل الرسائل على نحو سري حاملة الأخبار والمعلومات رغم أنف السجان.

لقد استطاعت سهى بذكائها تحويل الزنزانة الإفرادية إلى «غرفة» فيها «نافذة» عالية تطل منها على عالمها الجديد الحوش وحمامات النساء[٢٨]، فتقول عنها «أحب نافذتي حباً كبيراً. أحياناً، أصعد إليها ليلاً، وأتحين الفرصة لأنفض شرشفي لمزيد من التهوئة. وكانت نافذتي تتيح لي أن أكسر، وعلى نحو رائع، هذا الشعور بالعزلة الذي ما برحت هذه الأماكن غير الإنسانية تبثه فيّ. وَكُلّما استخدمتها، شعرت بأني أزداد احتيالاً على أبي نبيل (المحقق)، وبأني أمعن في إفشال استراتيجيته الآيلة إلى إكراهي على التعاون. إنها نافذتي، نبع الحياة أطل علي، ومصدرٌ للحيوية غير متوقع وعصي على النفاد»[٢٩].

تعاملت سهى مع المعتقل بوصفه أيضاً فرصة للتعلم، فنهلت من معارف أخواتها السجينات اللواتي كن من المسلمين الشيعة، فعلمنها نصوص القرآن، وحفظتها عن ظهر قلب ورددت مضمونها.

ولشغل الزمن لجأت سهى ورفيقاتها إلى الإبداع بالإفادة من أي مزق ورق أو قطع بلاستيك أو أسلاك معدنية أو نتف خيطان أو نوى الزيتون لصنع المسابح. وتحويل سلك النحاس إلى إبرة خياطة. بالنسبة إلى سهى لم يكن ذلك فقط قتلاً للوقت إنّه الحرية:

---

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(٢٩) المصدر نفسه.

«. . ذلك أن الإبداع، لي، لم يكن تضييعاً للوقت، على الإطلاق. وأن يبدع المرء فذلك لا يعني اللعب، البتة. فالإبداع لنا قبل أي شيء آخر، أن نحوز من خلاله حرية في التعبير، وأن نقول كُلّ ما طالنا منعونا من قوله، بينما نجد كُلّ ما ومن حولنا يدعونا إلى الصمت، وإلى إغفال ما نحن عليه. وهكذا اكتشفتُ داخل جدران معتقل الخيام هذه الحاجة العصية على الردّ، عنيت الحاجة إلى الإبداع مستفيدة مما لدي من المهارات. وصارت الأشياء التي نحققها في الخفية بمثابة رسائل جديرة بالتبادل. وراحت كُلّ منا تنقش فيها من الكلمات ما تشاء. وكان ثمة، بالطبع كلمات الحب للأقارب والأهل والأصدقاء. وثمة كذلك، الرسائل السياسية، والشعارات، لأجل بلادنا، ولأجل قضيتنا. . حتّى صار الإبداع حريتنا الوحيدة»[٣٠].

كما إنَّ الكتابة بدورها شكلت لسهى متنفساً، إضافة إلى الرسم، فكتبت الأشعار وحفظتها، ولم يكن الحصول على أداة الكتابة بالمسألة اليسيرة، ففي البداية كان القلم عبارة عن ورقة الألومونيوم الموجودة في علبة الجبنة، ومن بعدها حصلت سهى على قلم حبر ناشف سهّل لها الكتابة على «ورق الحمام» أو قطع القماش. ومنذ العام ١٩٩٦ شرعت سهى في خطّ يومياتها في المعتقل. وقد حصلت سهى بشارة على حريتها عام ١٩٩٨.

خامساً: مقاومة الممنوع

أحلام عواضة (مواليد العام ١٩٦٩)[٣١]، تعتبر أن أولى لحظات المقاومة تبدأ من إقفال الملف، أي بعد اكتمال التحقيق الأولي، حيثُ يعرض في نهايته على السجين التعامل مع عملاء الاحتلال، وهذه لحظة الرفض الأولى، وتبدأ الثانية منذُ فتح الزنزانة وحتى إغلاقها بشكل يومي. فكُلّ دقيقة اعتقال يقابلها دقيقة مقاومة.

وتقول إن الهمّ الأساسي هو شغل الوقت، وذلك باعتبار الغرفة مكاناً يأوينا، فنقوم بتنظيفها وترتيبها تماماً كما نفعل خارج الأسر، ويجب الحفاظ على زمننا الخاص بنا كإقامة الصلاة، وصرف بقية الوقت في الأشغال اليدوية مثل حف الزيتون لصنع المسابح، وسل خيطان من الحرامات والكنزات البالية لإنجاز مشغولات. وتذكر أحلام أن معتقلة تعمل خيّاطة حولت شرشفاً إلى فستان، وقد ساهمت البنات في شغل كنزة صوف إلى سهى بشارة بواسطة مسمار يدقّ رأسه فيحول إلى إبرة، فالآلات الحادة كانت ممنوعة وكذلك ـ تضيف ـ كنا نقوم برواية القصص لبعضنا

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٣١) من بلدة الخيام، اعتقلت فيها من ١٩/ ٩/ ١٩٨٩ إلى ١٢/ ٥/ ١٩٩٣، بتهمة الانتماء إلى المقاومة.

البعض حتّى بتنا نعرف أدق التفاصيل في حياة كُلّ معتقلة.

وفي كُلّ صباح ـ تقول أحلام ـ كنا نعيد ترتيب المكان كأنه ينتمي إلينا، فنتعاطى مع الغرفة كما نتعاطى مع بيتنا: التنظيف والترتيب والتجميل، إلى حدّ إننا كنا نحول أكياس النايلون إلى ديكور من أجل الائتلاف مع المكان. كنا نضع حراماً على الأرض كما لو إنَّه سجادة. وكان هناك شباك بلاستيك نضع خلفه قطعة من القماش كي يصبح مرآة. ومن ثُمّ ننصرف إلى شؤون أخرى بيننا كبنات مثل: تجديل الشعر والرقص والغناء والدق على إبريق الماء ورقص الدبكة، وهذه أشياء كانت تغيظ السجان فيأمرنا بوقفها، لأنها بالأصل ممنوعة. وفي الليل كنا ننتظر بفارغ الصبر نقاط الضوء التي يرسلها القمر عبر الشباك المغلق.

وكُلّ ممنوع كنا نقاومه بطريقتنا ـ تقول أحلام ـ فنقوم بالتواصل عبر الشبابيك من غرفة لأخرى. وحتى الأحلام استخدمناها لتبقينا أقوياء، تصرح أحلام ـ وتضيف إنها غالباً ما كانت تفكر في حبيبها الذي ينتظرها في الخارج ـ وفي أهلها وأمها بشكل خاص، وتستمد منهم القوة والعزم. وغالباً ما رأت وهي المسلمة السيدة مريم العذراء(عليها السلام) في أحلامها تنزل لتخليصها من الأسر، كما كانت ترى رايات دينية مكتوب عليها عبارة «الله أكبر».

وتعبيراً عن رفض واقع ذل الأسر، كانت أحلام ورفيقاتها يتمسكن بالمناسبات الدينيّة والوطنية وخصوصاً شهر رمضان وعيد الميلاد، فيتبادلن الهدايا من مصنوعاتهن اليدويّة ويحتفلن[٣٢].

سادساً: الموقف هو الأساس

نزهة شرف الدين (مواليد العام ١٩٥٨، الطيبة ـ قضاء مرجعيون)[٣٣]، تقول إنها منذُ لحظة اعتقالها وبداية التحقيق معها بدأت في استعادة سيرة الإمام الحسين والسيدة زينب (رضي الله عنها) سنداً لها في المواجهة والمقاومة مع المحتل، حتّى إنَّ نزل الحجاب عنها وهي الملتزمة، لم يكن ليؤثر في عزيمتها وإصرارها على التحدي «فلا اعتراف ولا تعامل». وتذكر إنها أدخلت إلى المعتقل قبل عيد الفطر بيوم واحد، وقررت بعد اليوم الأول للعيد الإقامة (نية الإقامة) والصيام لمدّة ستة أيام استحباباً بعد العيد كشكل من أشكال المقاومة والمواظبة، رغم الضغط على العبادات وقراءة الأدعية والقرآن، والتداول مع المعتقلات في المسائل الشرعيّة.

---

(٣٢) مقابلة شخصية أجريت معها.

(٣٣) اعتقلت في العام ١٩٨٩ حتّى منتصف العام ١٩٩١ في معتقل الخيام.

وتقول إنها ما أن تسمع مع أخواتها الأسيرات بأخبار عملية مقاومة في الخارج، حتّى كان يعلو التكبير وكأنهن غير مسجونات «الله أكبر»، كما لو أن «الدار دارنا» (بعبارتها). وحتى أنهن كن يكتبن ويخطن الشعارات مثل «الموت لإسرائيل»، ويلجأن إلى تنظيم دورات محو الأمية باستخدام الصابونة على الحرام أو على الباب كأداة للكتابة.

والإصرار عند نزهة كان على متابعة كُلّ المناسبات الإسلامية، وخصوصاً شهر رمضان المبارك، وعند حلول العيد يحتفل الجميع وتجري التهنئة وإقامة الصلاة، وفي أيام عاشوراء، كانت تقيم مجالس العزاء، والتي تعرف السيرة الحسينيّة من المعتقلات كانت تقرأها، فعندها أن «الجسد سجين ولكن الفكر حرّ»، و«الضعف يصنع قوة» والحرص على التضامن مع بقية الفتيات رغم اختلاف السياسات والانتماءات، حتّى إنَّ البعض منهن كان يقرأ القرآن للبعض الآخر.

وانسجاماً مع عقيدتها كانت نزهة تمتنع عن أكل اللحم لأنها تعتبره غير شرعي. وكانت تنظم وقتها بشكل دقيق، فعلى سبيل المثال تخصص ليلة الأربعاء لدعاء التوسل، وليلة الجمعة لدعاء كميل. وكانت دائمة النشاط مثل حف الزيتون لصنع مسبحة، أو كركرة الصوف من أجل حياكة جديدة، أو صنع قطعة جديدة من قطعة قماش قديمة. وتقول نزهة إنها دائماً كانت تستلهم من الشباب المقاوم خارج الأسر، ومن الشيخ الشهيد راغب حرب، وترى العزّة في «أن نقاتل العدو بالكلمة والموقف»[٣٤].

سابعاً: نور الإيمان

الأسيرة مريم نصار[٣٥] وفي روايتها لتجربتها في معتقل الخيام، شددت على «الذات» المجبولة بحب الله حصناً لقهر المرارة والألم والوحدة، تقول: «في معتقل الخيام قد يتكسر كُلّ شيء في نفسك ويتشظى، سوى شيء واحد، هو أنت. قد تخسر كُلّ شيء سوى ذاتك المقولة بحب الله والإخلاص له، تبقى لله ولك»[٣٦]. وتتمسك مريم بالعنفوان سبيلاً للتعالي على الجراح والآلام: «في معتقل الخيام تجد

(٣٤) مقابلة شخصية معها.

(٣٥) من مواليد العام ١٩٧٠ (بلدة بني حيان)، اعتقلت بتاريخ ٩/ ١٠/ ١٩٨٧ في معتقل الخيام، وتحررت في ١١/ ٩/ ١٩٩١ بعملية تبادل.

(٣٦) مريم محمد نصار، **سراديب الوجع**، كتابة نسرين إدريس (بيروت: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ٢٠٠١)، ص ١١.

التشوه يأكل أحلامك والواقع. إلا عنفوانك يكبر مع صغر المساحات وضيقها، يتعرش من الكوات الصغيرة ليمتد عالياً نحو السماء»[٣٧].

وأمام المتجبرين والقاهرين، لجأت مريم إلى من هو أقوى وأرحم، إلى ربّها تناجيه من زنزانتها بعد جلسة تعذيب طويلة، تقول: «تحسست جسدي المنقوش عليه شتى ألوان العذاب، فليس هنالك من أحد ليخفف عني سوى نفسي، فأتمتم بالحمد لله دوماً، وأشكر الله على ما تحملت من مصاعب، وأسأله أن يؤازرني في محنتي، فليس لي سواه.. ونظرت إلى الله لتشخص عيناي إلى رحمته تعالى، يرنو قلبي إليه، فأنسى ما مرّ في النهار السقيم. اقترب أكثر، ألمح دروب الشوق إليه محفوفة بالبلاء، فلست سوى فرد في ركب من العاشقين الوالهين إليه..»[٣٨].

وكغيرها من رفيقاتها، سرعان ما أدركت مريم أن المكان ينتمي إليها، وإن العالم بات صغيراً، تحده جدران المعتقل، وثمة حياة يجب أن تستمر تتقوت من الإيمان، كنا، تقول مريم: «بين قضاء الصلاة والصيام، والدعاء، نجتمع سوياً في فراغ الزنزانة لنحضن في قلوبنا نور الله المشع في أنفسنا، فنناجيه بما حفظت ألسنتنا، ونتلمس أعتاب رحمته بصمت دموعنا. ولم تكن تفوتنا أي مناسبة دينية. فكنا نحيي ليالي القدر المباركة في شهر رمضان، ونقوم بإفطار بعضنا على كسرات من الخبز، وأيضاً لم يفتنا إحياء شعائر عاشوراء الحسين (ﷺ) التي كانت تعطينا الدافع للصبر والرضى بما نزل بنا»[٣٩].

والحال، تقوم أحلام اليقظة والخيال بمداعبة النفس ومنحها بعض سعادة مفقودة داخل الزنازين. تروي مريم: «بين خيال وذكريات، تمتلكني أحاسيس السعادة التي تخفف من وطأة الحزن الساكن في، فكنت إذا ما أسندت رأسي إلى الحائط الجامد رحت أرسم بمخيلتي دروب القرية الحجرية المتشعبة، وسكون قادومياتها وبيوتها الحجرية القديمة..»[٤٠]. ويكاد الحلم أن يتلبس الحقيقة فتقوم مريم لتقتلع قضبان الكوة الصغيرة في الزنزانة لتخرج منها «فراشة صغيرة تنتقل من زهرة إلى زهرة، أو طيراً لا يمل القفز من غصن إلى غصن»[٤١].

قالت إحدى الأسيرات إن «معتقل الخيام» تحول إلى مدرسة، وكُلّ فتاة

---

(٣٧) المصدر نفسه.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ٤٥.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(٤١) المصدر نفسه، ص ٦٩.

استكملت تعليمها مع رفيقات زنزانتها، وبات للأشياء المحيطة بهن معانٍ أخرى، ومريم نجحت في اكتشاف معانٍ مضادة، تقول: «كنت أكسر معاني التكبيل بالحديد، بمجرد أن أزيد يدي التصاقاً ببعضهما، لأشد عليهما.. وكنت أؤازر نفسي، وأنا أسير في السراديب المظلمة مكبّلة، معصوبة العينين، شامخة الرأس: إن أروع الانتصارات التي تخلد، انتصار الحقيقة حتّى لو كانت معلقة على المقصلة»[٤٢].

وتضيف مريم «وإن كان البرد يحمل عدة وجوه، منها الغربة والمنفى، فقد علمني الثلج أن الصقيع يبدأ دائماً من القلب، وأن الشمس أبداً لا تهب الدفء لمن لا يملك قلباً، يشع منه نور الإيمان»[٤٣].

ثامناً: قوة الصوت

إن في استقرار الأسيرة رسمية جابر[٤٤] في الزنزانة رقم ٧ من معتقل الخيام وقراءتها لعبارة «يا الله» على جدرانها، أدركت أنها ليست وحيدة، فتقول: «إن شعاع النور الإلهي لا يزال يضخ القوة في شراييني والصبر في قلبي والإيمان في حياتي، وإن الله معي في هذا المكان البعيد المنسي»[٤٥]. إذاً الصبر والإيمان سيفتتان جبروت المحتل ويملآن قلب الأسيرة عزيمة حديدية، إلى حدّ أن حواسها المتحفزة جعلتها تخترق عتمة الكيس الذي يوضع على رأس المعتقل أثناء التحقيق. وكونها أسيرة لم يهن من عزيمتها، بل انتابها شعور آخر: «شعور يبث العنفوان في النفس ويثبت الأقدام ويقذف التحدي والمقاومة في القلب»[٤٦]. وتعاملت رسمية مع الألم أيضاً على نحو خاص، إذ شعرت إثره بالحاجة إلى الصلاة والدعاء: «فالألم يمحي الذنوب ويزيل الحجب والألم الشديد والدمّ ينزف من ظهري»، فصلّت واشتكت إلى الله، وثمة صوت كانت تسمعه يبث فيها القوة قادم من «خلف جدران العزلة» امتلك قدرة إخراج روح الأسيرة من المعتقل بصفائه وروعته، يردد: «فإليك يا ربّ نصبت وجهي وإليك يا ربّ مددت يدي، فبعزتك استجب لي دعائي وبلغني مناي ولا تقطع من فضلك رجائي. يا سريع الرضا اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء، فإنك فعال لما تشاء يا

---

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٨٠ ـ ٨١.

(٤٤) من مواليد العام ١٩٦٥ (محيبيب ـ جنوب لبنان)، اعتقلت في ٣/ ١/ ١٩٩٠، وتحررت في ٢٩/ ٥/ ١٩٩١.

(٤٥) رسمية جابر، **ذاكرة الصدى**، كتبتها أميمية عليق (بيروت: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ٢٠٠١)، ص ٢٢.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٩.

من اسمه دواء وذكره شفاء وطاعته غنى»[٤٧]. وقد حار السجان في أمر هذه القوة والعزيمة، وكانت رسمية تقول في نفسها، أبداً، «لن تبلغوا السرّ الذي لأجله استشهدت سعدى، والذي لأجله نحيا»[٤٨].

تاسعاً: حياة معلقة

تشترك تجربة المعتقلات اللبنانيات في كثير من التفاصيل، وهي تستند في رفضها للاحتلال وعملائه ومقاومتهما إلى الثقافة الموروثة وخصوصاً الدينيّة، ما يكبح بروز أي «أنا» تدرك فرديتها وتعبر عن حميمية خاصة بها تخالف نسق «الخطاب» النضالي السائد.

والحال، فإن الفعل المقاوم في الأسر أدرك بالحدس واقعتين: **الأولى**، واقعة المكان وضرورة احتلاله وشغله، بل وأنسنته من خلال اعتبار الزنزانة منزلاً بما يحيل إليه من إلفة إقامة والانصراف إلى تدبير شؤونه اليومية من تجميل وترتيب وتنظيف، وحتى تحويل أرضه إلى مسرح للأنشطة اليومية، ومجالاً للتعلم والنظر إلى النافذة بوصفها صديق يرسل أشعة الدفء صيفاً، ويحدد الوقت ويبعث نقاط ضوء القمر ليلاً يداعب الأحلام ويلونها بالفضة، ويغدو المطر المتسرب شتاء أنيساً وموسيقى للأذن. واستخدام الجدران الصماء أوراق كتابة وتدوين لمشاعر دافئة تعزز البقاء، وأدوات للتواصل بالنقر والأبواب الحديدية المغلقة بشبابيكها شبكة لنقل الأخبار والمعلومات.

والثانية، واقعة الزمان «السيف القاطع»، ذلك العدو الآخر «القاتل»، كما تقول إحدى المعتقلات، الذي يمرّ ثقيلاً «الدقيقة بساعة والساعة بيوم»[٤٩]. وكيفية تدبر كسب صداقته من خلال التحايل عليه بتقسيم دقيق للوقت بأنشطة، تبدأ بالرياضة والتعلم والتداول وصنع الأشياء اليدويّة والصلاة وقراءة القرآن والأدعية، وتنتهي بمسامرات الليل حول الأخبار خارج المعتقل والسِير الشخصيّة والعائلية كصلة وصل مع العالم. للمقاومة في الأسر فلسفتها العفوية التي لا تنهل وصفاتها، من أي كتاب معروف، إنها تعلم «الحياة خارج الحياة».

---

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٤٩) انظر شهادة المعتقلة نوال بيضون، في: **كم مر من الوقت، ١٧ أسيراً لبنانياً: يكتبون تجاربهم في المعتقلات الإسرائيلية** (بيروت: دار المسار، ٢٠٠٠)، ص ٤١.